

النقد الإسلامي للأدب بين النظرية والتطبيق

رواية نائب "عزرائيل" أنموذجاً

محمدي حاج إبراهيم *

مدخل

لقد انصبَّ اهتمام دعاة الأدب الإسلامي في تنقيح الأدب العربي - شعراً ونثراً - من الشوائب والدخائل التي انحسرت بين طياته مع زحمة الأحداث، وبسبب غياب الرقابة الواعية على أشد المؤلفات تأثيراً في الإسلام ومعتقداته لضراوتها، وشراستها، وتطاوها عليه. فنراهم في نقد النثر - مثلاً - قد هاجموا نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا)، وأعلنوها حرباً ضروساً على سلمان رشدي في آياته الشيطانية. ولكن ظلت هناك بعض الأعمال والمؤلفات التي مست الإسلام في شيء من مبادئه وقيمه في مأمن بعيدة عن أعين الرقباء. وربما يرجع سبب سكوت النقاد الإسلاميين عنها، إلى أنها لم

* دكتوراه في الترجمة من الجامعة الوطنية الماليزية عام ٢٠٠٣، وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

تصل في فحشها وتطاولها إلى مستوى تلك المؤلفات سيئة الذكر، أو لأن الهدف في هذه المرحلة لم يكن حصر الدخيل على الإسلام بقدر ما كان موجهاً إلى تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي وتأطيره، وتحديد الضوابط التي يجب أن يلتزم بها الأديب المسلم، فالنماذج التي استشهدت بها كتب الأدب الإسلامي، إنما كانت أمثلة جاءت لغرض الإيضاح لا الحصر.

إن محاولة حصر الأعمال التي تمس الإسلام عقدياً ليست بالعمل اليسير، فباب الأدب العربي الإسلامي قد أهمل وترك مفتوحاً لمدة طويلة من الزمن، استطاع خلالها كثير من المجترين التسلل والتطفل عليه واحتلال أماكن مرموقة وصلت للصدارة في بعض الأحيان.

ولقد مررت في مطالعاتي للأدب العربي على أشعار، وقصص كثيرة، رأيتهما تخرج عن حدود دائرة المسموح به. لكن لم يخطر ببالي أن أتكلم عنها أو ألح لها لأنني كنت على قناعة بأن الجمال والقبح لا يخفيان على العيون الساهرة والعقول الواعية، كما أنني لم أكن أتوقع أن يغفل جهابذة الأدب والنقد التعليق على مثل هذه المؤلفات. لكنني فوجئت عندما رأيت رواية (نائب عزرائيل) ليوסף السباعي التي حلقت في عالم الغيبيات بحرية وصلت لدرجة التهكم والسخرية من ملك الموت تلقي ترحيماً وقبولاً لدى النقاد. والذي زاد من دهشتي وحيرتي ودفعني لكتابة هذا البحث أن من بين النقاد الذين أشادوا بهذه الرواية علماء من أعلام الأدب الإسلامي، هو الدكتور عبد العزيز شرف، أستاذ الإعلام الإسلامي، وأحد مؤلفي كتاب (الأدب الإسلامي، المفهوم والقضية). حقيقة لقد صدمت عندما علمت أن فضيلة الدكتور لا يرى فيها أي خروج عن إطار العقيدة الإسلامية. وظننت في بادئ الأمر أن د. شرف كتب تعليقه الظريف على رواية (نائب عزرائيل) قبل أن تتبلور قضية الأدب الإسلامي في فكره. لكنني فوجئت بأن رأيه فيها جاء بعد سنة من إصدار كتابه (الأدب الإسلامي).

من هنا فقد عزمت على كتابة هذا البحث لتوضيح حظورة مواضع الزلل في رواية (نائب عزرائيل) وإظهار الجرأة التي جاوزت حدها عند مؤلفها، ومن ثم لفت الانتباه إلى أهمية إعادة النظر في أصول وضوابط الأدب والنقد الإسلامي، وضرورة التزام دعاة الأدب الإسلامي بما ينادون به قولاً وفعلاً. فلا نريد أن يكون حديثنا عن الأدب الإسلامي مجرد خاطرة عابرة، أو رأياً ندفنه في مقالة أو كتاب.

الاسم الأول كان لفتاة في مقتبل العمر تموت غرقاً. يصل نائب عزرائيل إلى الشاطئ مبكراً، ويقضي بعض الوقت في التطلع إلى الأجساد العارية. وعندما تحين نهاية الفتاة، يضطر نائب عزرائيل إلى استعارة جسد حبيبها الذي يجهل السباحة لإنقاذها بعد أن أخرج روح حبيبها وحبسها في كيس الأرواح. ولم ينس أن يطبع قبلة على شفهي الفتاة قبل إعادة روح الفتى إلى جسده.

أما الاسم الثاني فكان لعائلة كاملة تموت تحت أنقاض بيتهم القديم الذي سينهار عليهم. وهنا يدخل نائب عزرائيل جسد طفل، يسرق الملابس من ذلك البيت، ليخرج جميع أهله وينقذهم. وكان الأجل الثالث لرجل سمين يموت من التخممة. لم يستطع نائب عزرائيل إيقاف الرجل من التهام طعامه إلا عندما احتل جسد قطعة قلبت المائدة الوفيرة، وأنقذته من قدره.

أما الروح الرابعة فكانت لشاب تصدمه سيارة أجرة أثناء معاكسته إحدى الجميلات. وهنا يحل نائب عزرائيل في أكثر من جسد لأصحاب سيارات الأجرة، لكنه لا ينجح. حتى يضطر أخيراً إلى الدخول في جسد الجميلة نفسها لإنقاذ تابعها. ولم ينس قبل أن يعيد روح المرأة أن يشبع فضوله البشري في التعرف على الجسد الجميل.

وأخيراً، مجموعة أرواح تلقي حتفها بعد اصطدام قطارين. لكن في هذه المرة لم يتمكن نائب عزرائيل من تحقيق هدفه النبيل، فعزرائيل الحقيقي قد نزل إلى الأرض. ويلوم عزرائيل صاحبه على عدم التزامه بالاتفاق، إلا أنه لا يلبث أن يعفو عنه لأنه بشر. وأخيراً يعود يوسف إلى جسده وإلى الحياة على الأرض من جديد، لكنه يفاجأ بأهله وقد انشغلوا بالميراث يوسعونه سباً وشتماً. وهنا يرجو من عزرائيل أن يعجل بقبض روحه، ويحشره في أول كشف جديد لقبض الأرواح.

ويحقق الصديق المخلص عزرائيل رغبة صديقه يوسف بوضع اسمه في الكشف الجديد، لتصعد بعدها روح نائب عزرائيل إلى السماء، وتنتهي القصة.

وقفة مع ناقد

تناول التعليق على هذه الرواية عددًا قليلًا من الأدباء والنقاد، فالسباعي لم يحظ

فتحمست لقراءة تعليقه - بوصفه علماً من أعلام الأدب الإسلامي - وكنت أظن أنني سأجد عنده ما يطفئ غيظي وحنقي على السباعي الذي وصم ملك الموت بصفات البشر من خطأ، وعشق، وتلاعب بالمسؤولية. لكنني - وللأسف الشديد - لم أجد في تعليقه أكثر مما ذهب إليه بقية النقاد الفنيين من كون الرواية تخدم غرضاً اجتماعياً. ومن ثم حاولت جاهداً أن أُللم خيط هذا الغرض الاجتماعي الذي تحدث عنه هؤلاء النقاد، فوجدته غرضاً هامشياً، فمحور الرواية لا يخرج عن العُبت واللُهو. وقبل الإسهاب والمضي قدماً في تحليل الرواية، يجدر بنا أن ننظر إلى ما جاء على لسان د. شرف عند تحليله لها.

لقد خصص د. شرف في كتابه ستاً وستين صفحة للحديث عن السباعي وأدبه، ويظهر بوضوح أن السباعي يحظى لديه بمكانة متميزة، ترعاها نظرة التقدير والاحترام، فهو يراه: "أديباً حمل أمانة الكلمة وعبر عنها بوحى من إيمانه، ذلك أنه تخصص مع جيله والجيل التالي في إبداع فن أكثر عصرية، هو فن الرواية"^٥. ويصفه في موطن آخر "بالشجاعة، والعزيمة، والإقدام، وحسن النية، وعدم الغرور، والأمانة، والإنسانية. فالسباعي يتميز بروح الفكاهة والسخرية والتسامح، الأمر الذي يتيح له بوصفه فناناً قدرة كبرى على التأثير بالمؤثرات الخارجية وعلى التمييز بينها"^٦. ومن صفات السباعي الأساسية أيضاً، "معرفته بالحياة المصرية، والقاهرة خاصة، وتجارب الناس بوجه عام، وقدرته على استنتاج وتخيل ما لا يعرفه مما يعرفه، في توظيف فني للخيال لبناء صورة كاملة للحياة المصرية من لحظة أو نظرة عابرة أو حديث تلتقطه أذنه مصادفة، ويعمل الخيال والإدراك والفن في الإبداع الأدبي بوجه عام"^٧.

لا غرو إذاً بعد كل هذا الإطراء ألا يخلو رأي د. شرف في روايات السباعي من إطراء ومدح أيضاً. فهو يراها قدمت عملاً اجتماعياً يستحق التقدير حين يقول: "السباعي حاول في إنتاجه أن يرضي المثقفين والنساء والشباب، ذلك لأنه يستخدم الرواية في إطار رؤياه الإبداعية المتميزة استخداماً اجتماعياً. ففي رواية (نائب

٥ د. عبد العزيز شرف، الفن الروائي والوعي الأخلاقي (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣، ط ١) ص ٤٥.

٦ المصدر السابق، ص ٥١.

٧ المصدر السابق، ص ٧٣.

قيد وضابط، فهو يقرّ للسباعي مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، إذ يقول: "وهو لذلك يتحرر من قيود الزمن وواقعية المكان في (نائب عزرائيل) موظفاً هذا التحرر للنقد الاجتماعي" ١١. فتحلل السباعي وجنوح خياله وجرأته على الغيبيات لا ضير فيها، بل هي تحسب في ميزان حسناته، ذلك لأن خيال السباعي "لا يقرّ عليّ قرار، فيتجاوز الحاضر إلى المستقبل أو إلى الماضي، ولذلك نلاحظ في أدبه اغتراباً مكانياً، لا يقل خطراً عن اغترابه الزمني، وهو بذلك يفر بنماذجه إلى بيئة أخرى، يخلق فيها بخياله، يجد فيها عوضاً عما ضاق به، على نحو ما نجده في أولى روايته من دلالة حتمية على المعنى الاجتماعي والنزعة الإنسانية، وفي هذا تبدو أصالة السباعي في مقدمة روايته:

الإهداء إلى سيدنا عزرائيل.. الجميل! هذا الكتاب يا سيد عزرائيل، أنت بطله، فهو منك وإليك، حاولت فيه بدافع الوفاء أن أظهر لك للبشر على حقيقتك - أو على ما أظنه حقيقتك - وأن أزيل من أذهانهم تلك الصورة الشوهاء الشنعاء التي يتخيلونك بها. لست أدري إلى أي حد نجحت، ولا إلى أي حد قد أَرْضِيت.. أجل إلى أي حد قد أَرْضِيتك وأَرْضِيت البشر وأَرْضِيت نفسي؟ أما عن نفسي.. فهي راضية، ولست أشك أن في رضاها مظهرًا من مظاهر الغرور الذي يلزم الإنسان..! أما عن البشر فلا أظن هناك إنساناً استطاع أن يرضيهم..! أما عنك.. فما رأيك؟ لا تتسرع وتعلن سخطك، واذكر أنني لم أقصد بكابي إلا إنصافك وتقديرك.. وإنما الأعمال بالنيات" ١٢.

وإني هنا لتأخذني الدهشة والخيرة كل مأخذ، فأين الإنصاف والتقدير اللذان يتحدث عنهما السباعي في تصوير ملك الموت في صورة بشرية ووصفه ووصمه بصفات البشر الضعيفة المهينة. لقد صب د. شرف كل تركيزه في تحليل الرواية على بعدها الاجتماعي فقط، ولم يلتفت إلى قضية إمكانية التأليف وجوازه بدون قيد أو ضابط في الغيبيات والمعتقدات! لقد تجاهل د. شرف مساس الرواية بالغيبيات والمعتقدات، فقبل الرواية بكل شطحاتها وتجاوزاتها، لذلك فإن تصوير عزرائيل في هذه الصورة المخزية لم يستفزه على الإطلاق. والعجيب في الأمر أن د. شرف يؤكد

١١ المصدر السابق، ص ٧٤.

١٢ المصدر السابق، ٨٨.

بأن التصوير البشري لعزرائيل ضرورة تحتمها الرواية، فلا يمكن أن تستقيم الرواية إلا به، وفي ذلك يقول: "النموذج في أدب السباعي يتميز بتصوير أبعاده الثلاثة: الجسمي والنفسي والاجتماعي، فالسباعي يعترف بأنه بذل جهداً في محاولة تخيل عزرائيل، لذلك نراه يقدم صورة للبعد الجسمي العزرائيلي تتناقض مع تلك الصورة المرسومة في أذهان البشر. ويتكامل هذا البعد النفسي لنموذج عزرائيل في الاستعداد والسلوك، والرغبات والآمال، والعزيمة، والفكر، والمزاج في انفعال وهذوء، وانطواء، وانسباط. فعزرائيل كما يصوره السباعي جميل في بعده الجسمي، وهو لذلك عاشق في بعده النفسي، يعشق حورية ما رأيت أفن منها ولا أجمل. ويرتبط البعد الاجتماعي بالحدث والشخصية جميعاً، وهو بذلك يتوسل بالنمذجة لتجسيد المضمون الأخلاقي. وقد كان السباعي أميناً في تصوير الصعاب الكثيرة التي واجهت الرواية المصرية في تلك المرحلة، الأمر الذي يعطي لروايته مذاق الصدق الفني، والدقة في الحكم والبناء. فلو لم يصور البعد الجسمي لعزرائيل تصويراً يبين جماله، لما كان من المنطقي أن يصوره عاشقاً في بعده النفسي، فضلاً عن النقد الاجتماعي الذي يتخلل الحوار بينه وبين نائبه، وفي ذلك ما يوضح حرص السباعي على تأكيد البعد الاجتماعي والنزعة الإنسانية من خلال الربط بين الملائكة والبشر". ١٣.

لقد حاول د. شرف أن يضمن مسوغاته لتحرر السباعي بعبارات اجتماعية رنانة مثل: الرؤية الاجتماعية، والنقد الاجتماعي، والبعد الاجتماعي. فما من فكرة يتبنّاها ويثيرها أو وجهة يريتها إلا ويُقْفِيها بهدف اجتماعي. لقد كلف د. شرف نفسه شططاً بتفسير وتبرير موقف عزرائيل العاشق بأن الحب - عند السباعي - ظاهرة طبيعية، لذلك فلا غرابة أن نرى عزرائيل عاشقاً. وفي ذلك يقول: "ولذلك وجدنا السباعي يتخذ من مشكلة الحب إطاراً عاماً بوصفها ظاهرة إنسانية صرفة، وفي (نائب عزرائيل) عندما يتكلم البطل عن الوظيفة العملية للحب، يقول:

الحب شيء لا بُدَّ منه لكل كائن حي، إنه كالهواء الذي تنفسه، ولا بد من الحب ما دامت الحياة، فالكائنات الحية لا بُدَّ لها من التوالد والتكاثر، ولا بد من حدوث التكاثر بين الجنسين، ولا بُدَّ للتقارب من جاذبية تدفع أحدهما إلى الآخر،

هذه الجاذبية هي ما يسمونه الحب.

وعزرائيل يرى أن مفهوم الحب على الأرض يقتصر على هدف التوالد والتكاثر، أما في العالم الآخر فالحب هدف في حد ذاته، يقول عزرائيل:

هذا هو تفسير الحب في دنياكم، أما عندنا فيخيل لي أن الكائنات أشبه بالأقطاب المغناطيسية لا يكاد القطب السالب يقترب من القطب الموجب حتى يندفع كل منها إلى الآخر، أجل! ما من روح إلا لها أليفها الذي تأنس به وتحس الراحة في جواره". ١٤

وأخيراً، فإن د. شرف ينتهي إلى أن السباعي قد نجح في أن "يدمج الأبعاد الثلاثة [الجسمي، والنفسي، والاجتماعي] في رسم النموذج في مجرى الحدث والحركة بحيث يوحى بها دون تعبير مباشر تظهر فيه ذاتية الفنان، وتبلغ مقدرته الدرجة القصوى حين ينتج تصوير الأحداث أثره دون وعي من الشخصيات، على النحو الذي يذكرنا بتشيكوف. إلا أن السباعي يتخذ مكاناً إلى جانب (جوته) في (فاوست) حين يصور لنا نموذجاً خالداً لعزرائيل في الأدب". ١٥

يتضح لنا مما سبق أن د. شرف في تحليله لرواية (نائب عزرائيل) قد استند على المنهج الفني الصرف، فنراه يؤكد بعض الجوانب الفنية كتحقيق البعد الاجتماعي والنمذجة. لكنه - للأسف الشديد - لم يُبدِ أي اهتمام بمناقشة شرعية تمثيل ملائكة الله وإخضاعهم للهوى بدون قيد وضابط. وأنا عندما أُلوم د. شرف وحده دون سائر النقاد الفنيين - الذين أشرت إليهم في بداية النقاش - في إغفاله لقضية المساس والعبث بالمسلمات الغيبية، إنما ألومه لمواقفه وآرائه القيمة في تثبيت أسس الأدب الإسلامي، فما كان يجب عليه أن يميل كل الميل لشخص السباعي متجاهلاً تجاوزاته وشطحات خياله.

يَبْدُ أني - على أي حال من الأحوال - لا أرمي إلى الإساءة إلى مكانة الدكتور شرف، والتقليل من موقفه تجاه الأدب الإسلامي، إلا أنه ينبغي علينا بجانب اهتمامنا بالقيم الجمالية، والفنية، والاجتماعية، أن نأخذ في عين الاعتبار صلاحية العمل الأدبي من منظور العقيدة الإسلامية أولاً، حيث إن فساد العقيدة يعني فساد جميع القيم

١٤ المصدر السابق، ص ١٠٨.

١٥ المصدر السابق، ص ٩٢.

الأخرى. وكان الأولى بالذكور شرف دراسة خط الرواية في ظل حدود العقيدة الإسلامية بدلاً من التحليل الفني لوحده.

إن مهمة النقد أكبر من إجراء تحليل لنص من منظور أيديولوجي معين، فجمال النص وجدارته لا يتحققان إلا من خلال استيفاء دراسته وتحليله من كل الجوانب. وفي ذلك يقول أحمد جاسم الحميدي: "ليس المطلوب من النقد الأدبي أن يتحول إلى تحليل اجتماعي، أو نفسي، أو تنظير أيديولوجي بحثاً عن مضمون، أو فكرة أو غير ذلك. فالموضوع لا يحدد قيمة الأدب، وليس له أي قيمة معيارية، والمضمون لا يعطيه عظمته، ولا يلغي فرادته، والشكل ليس مطلوباً لحد ذاته، ولا مرغوباً فيه لنفسه، بالرغم من أنه شرط أساس ليعود الأدب أدباً" ١٦. إن الأدب الإسلامي يجب أن يكون أدباً مسؤولاً وملتزماً بعقيدة صحيحة يستمد منها مضمونه الفكري، ذلك لأن "الأدب الإسلامي ليس عبثاً، ولا يمكن أن يكون كذلك" ١٧.

رواية (نائب عزرائيل) من منظور العقيدة الإسلامية

هذه الرواية التي نحن بصدد مناقشتها ليست أولى المحاولات التي سعت للتحقيق في السماء والخوض في الغيبات، فقد سبقتها روايات يرجع بعضها إلى القرن الثالث الهجري، من أشهرها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ) التي تعد من أوائل التجارب الأدبية الإسلامية التي أطلقت للخيال العنان في اقتحام السماء. وبالرغم من التزام المعري بعدم المساس بالمعتقدات المسلم بها، إلا أنه لم يسلم من النقد أيضاً وذلك عندما أدخل كبار الشعراء الجاهليين الجنة.

لكن هذه المحاولات لم تشجّع الكتاب على التأليف في عالم الغيبات، فقد تجنبوه خوفاً وإشفاقاً على أنفسهم من جنوح خيالهم الذي قد يؤدي بهم إلى مهاوي الكفر والزنقة. فضلاً عما يعترى هذا النوع من التأليف صعوبات تصادم فيما بينها، تكمن في وجوب الاعتدال بين الالتزام والحرية، "مما يتطلب من القاصّ مهارة خاصة ينبغي أن تبدو في طرفة الخيالية

١٦ أحمد جاسم الحميدي؛ محمد جاسم الحميدي، الرواية ما فوق الواقع (دمشق: دار ابن هانئ، ١٩٨٥م) ص ٨.

١٧ نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٩٨٧م، ط ١)

وجدتها من ناحية، وعدم اصطدامها بالثوابت من ناحية ثانية". ١٨
وإذا عدنا إلى رواية (نائب عزرائيل) نجد أنها - وإن سلمنا بأهدافها الاجتماعية -
قد تجرأت على ملك الموت بأن رمته في أمانته، وطعنته في عظمته! إن القضية هنا
ليست قضية اجتماعية أو فنية، وإنما هي قضية إيمان. إن مسألة الإيمان واضحة، لا
يمكن أن تتجزأ، والمساس بركن من أركانه الستة يعني هدمه بالكامل.

لقد ثارت نائرة النقاد على نجيب محفوظ عندما تناول في (أولاد حارتنا) على
القيم والأصول في العقيدة الإسلامية، وتجراً فصورَ الله والأنبياء والرسالات السماوية
على غير الحقيقة الإيمانية^{١٩}، فلماذا لا تنور ونغضب إذاً عندما يمتحن ركن آخر من
أركان الإيمان؟ إن قضية الإيمان واضحة، فصلتها الشريعة، وقطعت عنها سبل الشك،
وجعلتها في قالب عقائدي مسلم به لا يمكن المساس أو العبث به.

وإذا نظرنا إلى منهج السباعي في كتاباته نجد أنه منهج متحرر لا يخضع لأي
ضابط أو قيد، وهو ما يبرر سبب تجرئه وتطاوله على ملائكة الرحمن. وقد اعترف
السباعي في مقدمة إحدى روايته بمنهجه الدخيل هذا، حيث يقول:
"فلقد سبق وأن قلت في مقدمة أحد كتبي إنني عندما أكتب، أكتب متحرراً من
كل شيء حتى من قيود الهدف، وإنني أترك الأفكار تنساب من ذهني كما يتراءى له
ولها، فأريجه من حملها وأريجها من حصاره". ٢٠

سأحاول في تعليقي هنا عرض بعض التعليقات المسيئة في حق ملك الموت عزرائيل
عليه السلام والتي وصلت لحد الاستخفاف والتهكم والسخرية. فعزرائيل عليه السلام في
رواية السباعي رجل، عاشق، مهمل في أداء عمله، يتلاعب بالمسؤولية المنوطة إليه.
والغريب في الأمر أن السباعي يدعي في مقدمة روايته أن هدفه من تجسيد عزرائيل ومنحه
دور البطولة من أجل تحسين صورته الشوهاء في أعين الناس، وإنصافه وتقديره.
لا يخفى علينا أن السباعي يجيد فن التلاعب بالكلمات. لقد ظن أن إهداء الرواية

١٨ أحمد درويش، تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي (القاهرة: الشركة المصرية العالمية، ١٩٩٨م، ط١) ص ٢٦.

١٩ أحمد أبو زيد، الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية، دعوة الحق (مكة المكرمة: مطابع رابطة العالم
الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، العدد ١٤٥، ١٤١٥هـ) ص ٤٧.

٢٠ يوسف السباعي، البحث عن جسد (مصر: لجنة النشر للجامعيين، بدون تاريخ) ص ١٣٩.

لعزرائيل كفيفة بأن ترضي القراء، وتحول القصة بكل محتوياتها إلى نكتة عابرة أو مزحة بريئة. لكن هل كان السباعي يقصد بالفعل إنصاف وتقدير عزرائيل؟ هل من الإنصاف والتقدير أن يلصق عليه صفة الخطأ والغفلة. لا يكتفي السباعي بنسب الخطأ غير المقصود إلى عزرائيل، بل يجعله يقر بأن تأخير قبض بعض الأرواح في بعض الأحيان أمر طبيعي في عرف السماء، وذلك عندما يطرق رأسه للراوي معتذراً:

"الظاهر قد حدث التباس في الأمر.. لقد أخطؤوا في الجيء بك إلى هنا.. فلست أنت المقصود، بل المقصود هو صاحب الاسم الذي في الكشف.. حقيقة أن الاسمين متشابهان، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون عذراً لارتكاب مثل هذا الخطأ.. فهو خطأ مخجل شنيع.. بل هو الأول من نوعه.. فقد يحدث أن تتأخر قليلاً في إحضار شخص.. أما أن نحضر شخصاً سواه، فأمر لا يتصوره عقل". ٢١

إن الجرم الذي ارتكبه السباعي في نسبة الإهمال والتفريط لملك الموت - وإن كان على سبيل المزاح والدعابة - جرم عظيم. ولست أدري كيف سكت النقاد عن هذا المحن والإسفاف والله يقول في محكم آياته: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ {الأنعام: ٦١}، إن نسب التفريط والنقص والزلل للملائكة كفر يخرج من الملة، ذلك لأنهم رسل الله، وكلهم - عز وجل - وفوض إليهم أمر تنفيذ أوامره، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ {السجدة: ١١}، فتقصير الملائكة في أداء مهامهم يعني تقصير من وكلهم في سوء اختياره لهم.. تعالى الله عن ذلك علواً عظيماً!

ثم لا يكتفي السباعي بوصم عزرائيل بالخطأ والإهمال، بل يصفه بالخيانة أيضاً. وذلك عندما يفوض أمر قبض الأرواح للراوي من أجل الحصول على ساعات حب، وأيضاً عندما يقدم اسم الراوي، صديقه، الذي لا يريد أن يعيش في الدنيا التي تنكرت له وشتته في أول كشف للموتى. فهو هنا يجعل من عزرائيل إلهاً يتصرف كيفما يشاء، يقدم ويؤخر، يميت ويحيي؛ أو مسؤولاً كبيراً ذا صلاحيات مطلقة في مكتب إله غافل، والعياذ بالله! إن قضية الموت والأجل قد حسمها القرآن الكريم، فلا تقبل المزاح والتهريج، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ {الأعراف: ٣٤}، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ {نوح: ٤}.

أما عن صفات عزرائيل وكنه ذاته، فالسباعي يصفه بأنه رجل، ليس أي رجل، بل رجل عاشق. وقد اتفق العلماء على أن الملائكة ليسوا إناثاً ولا رجالاً، فمن وصفهم بالإناث فهو كافر، ومن وصفهم بالذكور فهو فاسق. فهل يصح أن نجد هادم اللذات يتلوع عشقاً في وصف حبيبته!

"آه يا سيدي، لو رأيت قطبي الآخر.. إن جاذبيته لا تقاوم، حتى لقد أحسست بنفسي أندفع إليه اندفاعاً عنيفاً.. كأنني قبلت صاروخية". ٢٢

كما يظهر عزرائيل - بجانب عشقه وانشغال عقله وفؤاده بحوريات الجنة - رجلاً ضعيفاً مغلوباً على أمره عندما تضيق به السبل، فترى الراوي يقول في سخرية عندما طلب منه عزرائيل كتم الخطأ الذي وقع فيه:

"وكان صوته مليئاً بالرجاء، ونظراته تستثير العطف حتى لم يسعني إلا أن ألي رجاءه وأعده بما يطلب.. وإن كان الشيطان قد بدأ يوسوس لي ويحضي على ألا أَرْضَخ ولا أمتثل.. عزرائيل.. ذلك الجبار الذي ترتجف من ذكره الأفئدة وتهلع من اسمه القلوب.. يقع في يدي.. فأتركه يفر بهذه السهولة.. وأعفو عنه بهذه البساطة.. ألم يكن من الأفضل أن أنتهز هذه الفرصة فأضج بالصياح وأفضحه بين أهل السماء.. أو على الأقل أساومه في مطلبه.. وأطلب منه أجراً نظيره. وأحسست بالكبرياء تملأ نفسي.. ولم أشعر أنني تميت شيئاً قدر أن يراني أهل الأرض في هذا الموقف.. وعزرائيل المخيف الذي لا يرحم.. يرجوني العودة إلى الحياة.. وأنا أتأبى وأتمنع". ٢٣

أما عندما يتكلم السباعي عن عمل عزرائيل في قبض الأرواح، فإنه يصوره - بطريقة غير مباشرة - في شكل ساحر يحمل في إحدى يديه عصا، وكيساً في اليد الأخرى يجمع فيها غلته. يصبوب العصا إلى الروح المعنية، فتخرج طائعة وتستقر في كيسه. تقول الرواية:

"رأته قد أخرج من عباءته عصا صغيرة وقدمها إلي.. وأخرج من جيبه ورقة مطوية

٢٢ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٢٩.

٢٣ المصدر السابق، ص ١٣.

وكيساً صغيراً، وبدأ يشرح المهمة العجيبة قائلاً: هنا بيان بالأرواح المطلوبة قبضها.. وليس عليك إلا أن تشير إلى الروح بهذه العصا.. حتى تترك جسدها مطيعة صاغرة.. وعندما تتجمع لديك كل الأرواح المطلوب قبضها في هذا الكيس تحضرها إلي". ٢٤

وشتان ما بين الصورة التي حاول السباعي رسمها لطريقة أداء عزرائيل مهامه، والصورة التي تكلم عنها السلف الصالح. يقول ابن كثير في وصف عمل عزرائيل: "ملك الموت عزرائيل له أعوان. وأن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء". ٢٥

أعود مرة أخرى لأسأل: هل أنصف السباعي عزرائيل حقاً؟ أين الصورة الشوهاء هنا، هل هي تلك الصورة التي رسمها السباعي أم الصورة التي نستشفها من قوله تعالى في وصف ملائكته: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ {الأنبياء: ٢٦-٢٧}.

وأخيراً وعلى الرغم من كل مغالطات السباعي وافتراءاته في حق ملك الموت، إلا أنني لا أتهمه في دينه لأنه لا يحق لي ذلك أولاً. فضلاً عن أنني ألح إلى أن السباعي كان يدرك أن ما شطح به خياله ذنب في حق عزرائيل وقدسيته، وقد حاول أن يوضح أنه مؤمن يعرف قدر عزرائيل ومكانته في مقدمة روايته عندما اعتذر مقدماً عن عبثه ومجونه، قائلاً:

"وهناك يا سيدي شيء آخر أخشى أن يثير حفيظتك علي وأن تفهمه على غير ما قصدته.. وهي تلك المزح التي قد تلمحها بين صفحات الكتاب.. فقد تحملها حمل العبث، ولكني لا أشك أنك ستلمس لي العذر إذا علمت أنني رجل أحب المزاح، وأتني أرى المرء لا يربح من حياته إلا ساعات الضحك.. وإذا ما علمت أيضاً أن الإنسان بطبيعته مخلوق مهرج.. وأنه لا يغريه شيء كالهزل والتهريج.. وأنتك إذا ما أردت منه أن يستمع إليك، فأضحكه أولاً، ثم قل له ما تريد.. إذا علمت كل هذا فلا أظنك إلا

٢٤ يوسف السباعي، نائب عزرائيل، ص ٣٣.

٢٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩٧م، ط ٢) ج ٣، ص ٥٦٥.

عاذري في مجوني ولا أظن حديثي عنك إلا ويجد من نفسك موقع القبول.. ولعلي أكون بذلك قد نلت منك الرضاء.. كل الرضاء" ٢٦.

ومهما يكن من أمر نية السباعي وقصده الحقيقي، فإنه يتبين لنا من خلال هذا العرض الموجز أن السباعي قد تجاوز فعلاً الخطوط الحمراء بطريقة تناوله لقضايا العقيدة الإسلامية مما لا يدع مجالاً للشك أن فكرة إنصاف عزرائيل وتقديره ليست إلا حيلة أراد بها تضليل القراء، وإنقاذ نفسه من سهام النقد. لقد اتفق علماء الأمة على أن التهكم والاستهزاء بركن من أركان الإيمان والعقيدة - حتى وإن كان من قبيل المزاح والترويح - كفر صريح يخرج المسلم من الملة، يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ {التوبة: ٦٥-٦٦}.

دور النقد الإسلامي

يذهب بعض النقاد إلى أن الأحكام النقدية أحكام ذاتية تأثيرية يستطيع أن يطلقها كل قارئ وكل كاتب، وليس عليه ضير ولا منها ضرار لأي أحد لأنها آراء شخصية قد تكون على صواب وقد يجانبها الصواب. ويذهب فريق آخر إلى القول بأنه من الخطأ محاكمة الفن بميزان العقيدة، أي أن الحكم على الفن بمدى التزامه بالعقيدة أو عدم التزامه بها خطأ شنيع، ذلك أن لكل منهما منهجا وخصوصية وقانوناً.

إن الذين يشيعون هذه الأقوال إنما يريدون فصل العقيدة عن الفن، أو تحرير الفن من ضوابط العقيدة والدين. وفي معرض الإجابة والرد على هذه الدعاوي، يقول د. عمر الساريسي: "قول الكاتب أن لكل منهما (منهجاً وخصوصية وقانوناً) صواب، وفيه وصف لطبيعة كل منهما بأنها من غير طينة الأخرى. فالعقيدة ما تتعقد عليه الهمم بالنوايا من الأفكار، التي توضع موضع الإيمان والثقة والاحترام، وقد تكون سماوية ربانية وقد تكون وضعية بشرية. والفن انسجام بين قيم الحق والخير والجمال... وحينما ينظر الباحث في عزل العقيدة عن الفن يذكر، في تاريخ النقد، فكرة فصل المعنى عن اللفظ، ومحاسبة كل منهما على حدة، كما يخطر بباله الصراع الذي قام بين المذاهب الأدبية، من فكرة الفن الخالص والفن الواقعي، أو شعر الفن

الحديثة نستطيع أن نستفيد من الأشكال الفنية المعاصرة في المسرح والقصة والشعر". ٢٩
إذاً لا بأس من تحليل النص تحليلاً فنياً باستخدام المناهج والأدوات الغربية المعاصرة،
لكن يجب علينا في المقام الأول وقبل كل شيء قياس مدى التزام العمل الأدبي بالإسلام
في مبادئه وقيمه. لكن قد يقول قائل بأن "واقع الخطاب الروائي هنا مفترض، أي أنه عالم
رمزي، يعلو على الواقع الفعلي، ولا يندمج فيه، يتماشى معه دون أن يكونه" ٣٠، لذلك
فلا ضير في المنهج الذي اتخذه السباعي، فالقصة خيالية لا تمت إلى أرض الواقع بصلة.
لكننا لو افترضنا أن الواقع في الحدث الروائي هو واقع وهمي، فيجب قبول
إمكانية حدوثه حتى وإن لم يحدث فعلاً، والشخصية وإن لم تكن واقعية إلا أنها ممكنة
في الحياة. هكذا يصبح الواقع الروائي أكثر غنىً وشموليةً من الواقع الفعلي المادي،
بدلاً من العبث من أجل الفن وحده والتخبط في لا شيء.
وختاماً فإن الجرأة التي قدم بها السباعي روايته (نائب عزرائيل) لا يمكنها بأي
حال من الأحوال أن تحسب له. فالسبق والتجديد في الفكرة العامة لمحور الرواية إنما
كان منبعه احتراسه. غيره وتوخيهم من الوقوع في مسالك السقوط والانحراف، فكل
مسلم يخاف من الخوض في الغيبات، والتأليف وإطلاق العنان للخيال ليرسم الغيب
الذي أخفاه الله سبحانه وتعالى عن البشر لحكمة هو يعلمها. لذلك فإن المجترئ
والمغامر الذي أحلّ نفسه تصوير الغيب على هواه بدون علم لا يستحق التصنيف
والتهليل، بل يجب أن يُحترس منه لكي لا يجرف معه النفوس الضعيفة التواقعة إلى
المغامرات الخطيرة.

٢٩. د. نجيب الكيلاني، رحلتي مع الأدب الإسلامي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ط ١) ص ٢١٢-٢١٣.

٣٠. أحمد جاسم الحميدي، الرواية ما فوق الواقع، ص ٣٠.